المقدمة

حقـائق تـاريخ العراق وظروف نشأته الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وبه أستعين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطاهرين وبعد ، لايختلف عراقيان من المثقفين على ضرورة معرفة حقـائق تـاريخ العراق كما يحرص كل إنسان على معرفة كل ما يتعلق بتكوين وصيرورة وطنه ، ويتميز العراق بكثرة الخصوصيات والتعقيدات التي أحـاطت بتاريخه وظروف نشأته الحديثة ذلك لكثرة القوى التي توجهت لاحتلاله فخاب بعضها ونجح البعض الآخر فمن هؤلاء البعض من ترك بصمته على صورة العراق وصيرورته وغالباً إن لم يكن دائماً فإن هذه البصمة حملت أثرًا سلبيًا إن لم تكن آثارًا سلبية عـديدة يمكن تلمسها على صعيد المعتقد أو على صعيد السلوك الاجتماعي والبنية النفسية وكان مجمل الأحداث قد ترك أثره في تأخر استقلال العراق وتخلف أوضاعه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسيـاسية وأصبح ميل السكـان يتأثر مرة بالانتماء الطائفي لفئة من السكان يدفعها تجاه إيران ولو بشكل محدود فيما كان البعض من غير العرب يتململون (خصوصاً الكرد) لعدم حصولهم على مـا وُعِدوا به من استقلال وتأثر بعض أتباع الديانة المسيحية بالعاطفة الدينية أو بالدعاية البريطانية لفترة من الزمن ظلوا خلالها يحلمون بدوام السيطرة البريطانية لتدوم رعايتها الخـاصة لهم ،فيمـا توجهت عواطف الغالبية العربية إلى حلم الوحدة الذي ابتعـد (في نظرة العراقيين في العهد الملكي) بعد احتلال سوريا مـن قبل الفرنسيين وتسليم فلسطين إلى الصهاينة وسيطرة العائلة السعودية على معظم أراضي

الجزيرة العربية ثم عاد الحلم ليستيقظ بعد أحداث الرابع عشر من تموز التي أسقطت الحكم الملكي وأقامت حكماً جمهورياً أمَّل القوميون أنه سيكون قومياً والثوريون أن يكون ثورياً والاشتراكيون أن يكون اشتراكياً وقنع البسطاء بأن يوفر لهم فرصة الحصول بشرف على لقمة العيش وعلاج المريض .. دون معاناة كبيرة ، ثم تمزق حلم الوحدة بعد أن اختلفت الأهواء وتزايد إغراء السلطة مع كل انقلاب جديد من سلسلة الانقلابات حتى وصل الأمر بآخر الزعماء أن يخاطر باستقلال العراق من أجل أن لا يفقد السلطة وقد فقدها أساساً منذ أن نسي المبادئ التي دعا إليها من قبل وأمر قواته بغزو الكويت ، ولم تكن جراح الحرب التي خاضها ضد أطماع إيران وتدخلاتها المستترة بإثارة النعرة الطائفية لم تكن قد اندملت بعد ،والتي ربما وطأت لها إجراءات الكبت الحكومي على الحريات المختلفة بما في ذلك ما يتعلق بشعائر هذه الطائفة أو تلك ومكانة هذه الشخصية أو سواها ، طيلة سنوات من حكم حزبي خانق ، ثم جاء الاحتلال الأجنبي بتعاطف بعض العراقيين الذين يئسوا من امكانية التغيير من الداخل لتتذوق أغلبية الشعب المرارة والعنت .

لقد كنت منذ وقت طويل أُمني النفس بالعمل على البحث والتنقيب في صفحات التأريخ مدفوعاً بهذه الاختلافات الكثيرة بين المكونات وهذه الادعاءات الكثيرة والمتناقضة بين الجماعات السياسية من الشيوعيين إلى القوميين وانتهاءً بالبعثيين الذين برهنت قيادتهم في العراق أنها لا تتعامل مع المبادئ القومية إلا كغطاء لطموحات زعمائها الفردية فأهدروا فرص الوحدة التي قتلوا الاذاعات في مناداتهم بها في كل وقت وحين وتراجعوا عن الخطوات الاشتراكية يوماً بعد يوم وأصبح (القائد الضرورة) يدعو المعلمين والعسكريين وغيرهم من منتسبي الجهاز الحكومي إلى استغلال أوقات إجازاتهم بالعمل البدني للحصول على لقمة العيش فيما اضطرت الكثير من العوائل إلى بيع أعزّ ممتلكاتها المادية بيوتها أو أثاث البيوت لسد حاجتها إلى الخبز. ثم أصبحت الحاجة ضرورية إلى هذه المراجعة بعد وقوع الاحتلال والتطورات العجيبة في السنوات

التي تبعته وجعلتنـــا نندم ونتوب إلى الله مما تجرأنا على الحلم به مـن حـرية وديمقراطية وعيش رغيد. لذلك وبعد أن أقدمت مستعيناً بالله على مباشرة هذا العمل لأضعه بتوفيق الله بين يدي القراء والمهتمين منهم بمصير العراق على وجه الخصوص واجهتني مشاكل متنوعة فبعض فترات التاريخ القريب لم تتناولها المصادر إلا القليل وبعضها تناولته مصادر بعين الأجنبي الذي لايميّز حقائق الواقع ويتبنى الأحكام المسبقة مما يدفعه الى الفهم الخاطئ لكن معايشتي للكثير من الأحداث وذكرياتي عنها أعانتني الى حد أرجو أن يكون مرضياً لجهد الوقوف على الحقيقة و المحافظة على الحياد تجاه الأحداث .

ولابُدَّ لي من وقفة أقدم فيها الشكر والتقدير إلى الأساتذة والأصدقاء الذين قدموا عونا لا يمكن تقدير قيمته سواء منهم من وفر لي بعض المصادر والكتب للاطلاع عليها أو من نبهني الى بعض الأخطاء أو أبدى ملاحظة مشكورة وأخشى إذا عددتهم أن أغبن منهم أحداً وإذا ذكرت فضلهم أن أُقصر في إطرائه وإنما جزاؤهم العظيم عند الله سبحانه بأعظم الأجور . والحمد لله من قبلُ ومن بعد .

obeikandl.com

obeikandl.com

تـوطئـة

أدرك أن بعضاً من الناس سيشعرون بالإنزعاج ويتساءلون عن مبرر وجدوى الكتابة عن قضية العراق ، لكني لا أشك أن أكثرية القراء والمهتمين يعرفون الجواب تماماً ، إن قضية العراق هي قضية انتماء وانتماء متبادل ومزدوج لا تناقض فيه فالمواطن العراقي إنسان عربي على الأغلب مع الاعتراف بوجـود مكونات قومية أخرى ، وهو يشعر أن هذه الأرض جزء من كيـــانه وأنه هو الآخر جزء منها وبالتالي فإن من يتآمر على هذه البلاد ، كيانها واستقلالها وهويتها ..فإنه يتآمر على كيان وهوية وانتماء الإنسان فيها وبشكل أساس ؛ الإنسان العربي الذي عاش تاريخه منذ أقدم العصور على هذه الأرض منذ ما قبل الإسلام ودخوله البلاد بقرون والذي عانى طوال فترات من هذا التاريخ ما عانته هذه البلاد من الويلات والكوارث والانتكاسات كما عايش بزهو ونشوة ما شهدته من ازدهار وتقدم و انتصارات ، فارتبط بها ارتباطا مادياً وروحياً ، خصوصاً أنها أصبحت يوماً من الأيام حاضرة العالم وعاصمة الحضارة في كل الدنيا وحاملة لواء المجد العربي والإسلامي في أبهى أزمانه وأروعها .

لقد لعب الموقع الجغرافي للعراق أثره في طبيعة وتاريخ العراق ، فكان دفء المناخ واعتداله وانبساط أرضه وخصوبتها وكثرة المياه ووفرتها .. عوامل دفعت المجموعات البشرية حتى من الأجزاء البعيدة من العالم لتتطلع إلى هذه البلاد بنظرة لا تخلو ولو قليلاً من الطمع . وإذا كان قربه من مصادر بشرية مختلفة ومتنوعة قد ساهم في إثراء تكوينه الاجتماعي إلى حد .. فإنه بالمقابل فتح الباب واسعاً أمام الاضطرابات الكثيرة

obeikandl.com

والتقلبات المؤلمة في مساره التاريخي و أدى إلى فقدان استقلال الـــبلاد طوال قرون لأسباب وتعليلات يمكن فهمها والوقوف عليها ، ويقف في مقدمة تلك الأسباب تراث من الطمع و التربص عن كثب لاستغلال كل فرصة سانحة من أجل بسط يد السيطرة والنفوذ وإعادة أحلام التسلط والاحتلال والتحكم ولو كان ذلك بالنيابة عن غيرهم من القوى المتعاظمة . لقد جاء التاريخ في حلقات مترابطة كانت كل حلقة منها بما فيها من أحداث وظواهر سبباً لنشوء الحلقة التي بعدها وكان آخر تلك الحلقات وربما أسوأهـا (إذا ما قارنا كل حدث بعصره) الاحتلال الأميركي في عام ٢٠٠٣ الذي جاء عدوانا سافراً على سلامة واستقلال العراق مهدت له سياسة حاكم لم يستــطع استكشاف خطوط المستقبل وتوجهات القوى الكبرى في العالم ولم يتمكن من بناء المؤسسات القادرة على أداء هذه الوظيفة إضافة إلى جملة أخطاء متلاحقة توحي بأن تصرفـاته قد أمليت عليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فجاءت النتيجة ممثلة بهذا العدوان ليكون آخر الصفحات في سجل المطامع الأجنبية لدول الغرب التي يسيل لعابها كلما ذكر اسم العراق وثرواته العظيمة التي أصبحت لسوء الحظ وبالاً على شعب العراق بدلاً من أن تكون نعيما له . ولكي ينجح هذا العدوان في قطف أكثر ما يمكن من ثمار العدوان على صعد السياسة والاقتصاد لآماد تمتد بعيدا إلى المستقبل فانه أحيا ما استطاع و كرس ما استطاع من التناقضات الطـائفية والعرقية في العراق ليجعل منها فجوات تمتد فيها جذور تدخلاته و إملاءاته التي تضمن لـه أكبر قدر من المصالح و المنافع و كان الهدف الأكبر لحملته ضد كيان العراق : الطـابع العربي الإسلامي الصريح الذي اصطبغ به العراق طوال تاريخه المعروف ،محاولا أن يموه قدر ما يستطيع تحالفه مع قوى أخرى التي تستهدف ذات الهدف دون أن تستطيع إعـلان ذلك لكن الأميركيين أنفسهم يرددون باستمرار عبرة صائبة تقول « العبرة بالتصرفـات و ليس بالإدعاءات « وسواء كان ذلك التحالف حقيقة فكرية متفقا عليها أوكان واقعا يتم التغاضي عنه وإغفاله و التظاهر أو الادعاء بأتنه غير موجود فالنتيجة واحدة . قد يتوهم البعض من العراقيين من غير العرب أو ممن هان

عليهم هذا الانتماء إلى العروبة بسبب التأثيرات الأجنبية أن لهم مصلحة ما في هدم هذا الكيان و في مسخ هذا الطابع عنه و لكنهـم في الحقيقة يضحون بالمصلحة الأهم و يخاطرون بالمخاطرة الأعظم لأن رسوخ هذا الكيـان بهذا الطابع هو دعامة من دعامات الاستقرار الذي لا يشترط فيه أن يكون ظالما أو على حسـاب مصلحة فئة معينة بل أن السبب في ضعفه و هشاشته و بالتالي زيادة المخاطر المحيطة به هوغالباً الظلم وانتفاء العدالة بشكل أساس ، إن تجارب الماضي القريب المؤلمة وظلامـه يحب أن لاينسينا وهج الازدهار والعدالة والرخاء والتحضر في الماضي البعيد الذي قـام على أساس العدل الذي أقامه المسلمون وفي طليعتهم العرب عندما كان المسلم مسلماً حقا لا ادعاءً .

ولكي نخرج بالعبرة المفيدة والثابتة فإن الأدوات المتوفرة لنا هي :

١.دراسة الوقائع التاريخية الموثقة المتيسرة .

٢- دراسة التكوين والمكونات الاجتماعية المؤثرة و المتأثرة قدر ما يمكن .

٣- تحديد ودراسة النتائج السياسية مقرونة بمقدماتها على ضوء حركة التاريخ والمجتمع .

هنا لابد لي من الإشارة إلى أن العنصر السامي أو الجزري (والعرب من مكوناته) الذي حكم البلاد في تاريخها المبكر وفي أفضل فترات التاريخ اللاحقة يتميز بعدد من المزايا في رأيي أهمها الميل إلى التحضر والتعلم والى الابتكار والاختراع عندما تسنح الظروف المواتية ، لذلك فإن قيام الحضارة في المنطقة والتحول التاريخي المتمثل في اختراع الكتابة الذي بدأ و تطور في عدة أجزاء منها و لكن بدايته الموثقة أوإحدى البدايات المعروفة كانت من العراق ، كذلك فان هذه المجموعة البشرية تمتاز بقابلية الاقتناع بوجود الاسباب وراء النتائج و القدرة على الوصول الى الأسباب من خلال النتائج وهي الميزة التي أهلت شعوب هذه المجموعة للإيمان بالأديان و حمل الرسالات السماوية . كذلك فان هذه الشعوب تميل الى الاعتزاز بالماضي و بالعلاقة الأبوية و ذلك ما دفعهم

للاهتمام بكتابة التاريخ و الأنساب كذلك فانها تميل الى الطاعة عندما تقدم لها المبررات الصحيحة و تكفل لها النتائج النافعة و لو نظريا في كثير من الأحيان و هذه السمات يمكن ان تلمس وجودها و تلمس نتائجها من خلال السلوك الاجتماعي والسياسي لشعوبها عبر التاريخ الذي يعطينا أكثر من مؤشر على عدم تقبل هذه الشعوب للخضوع الى سلطة لا تستطيع تقديم المبرر الحقيقي من خلال الدين و العلاقة الروحانية القائمة على اعتبارات لا تتنافى مع العقل ومع الموروث الروحي لشعوبها و قد حدث ذلك للشعب اليهودي في مصر خلال حكم الفراعنة ثم حدث مثله للشعب العربي في العراق عندما رفصوا المجوسية و كانت طرق حل المعضلة مختلفة بين الحالتين . و من جهة أخرى فقد اختلطت دماء الشعوب في العراق و هذا لا يمنع أن تظهر سمات رئيسية للمجموعة الكبرى التي استطاعت ان تحافظ على نسغ متصل يمدها بمقومات الوجود و الاشعاع و لهذا فان كلامنا عن مزايا الشعب العربي السامي في العراق هو ليس بمحاولة ادعاء للنقاء العرقي أو محاولة فرض هذا الطابع على الآخرين فقد انصهر الجميع في بوتقة المجتمع المسلم في النهاية الى درجة أن بعض العرب أصبح كرديا أو فارسيا بتأثير الاختلاط بالمحيط ... أو ربما تركيا أو أفغانيا كما تدل على ذلك ادعاءات الانتساب الى قادة الفتوح العربية في مجموعات عرقية عديدة وفي مجتمعات مختلفة , وعلى العكس فان من المؤكد أن كثيرا من العناصر التي ذكرناها قد ذابت في الكيان العربي و أثمرت من خلاله في أحيان كثيرة ثمرا نافعا لذلك فمن البديهي القول ان حديثنا عن الانتماء العربي اصبح بالنتيجة يقوم على اساس الثقافة والمصلحة المصيرية و ليس مقتصرا على المسألة العنصرية خصوصا فيما يتعلق بالواقع و المستقبل الذي أصبحت الطرق فيه الى العولمة و الانفتاح في مختلف الصعد تبشر بنتائج كبيرة..

ومرة أخرى لنعد الى التساؤل...لماذا نكتب عن قضية العراق ؟ ..لماذا نقلب صفحات التأريخ ونبحث بين سطورها ونحاول الوصول الى ما وراء الكلمات .. وهل يفي ذلك بالمسؤولية ويدفع تهمة التقصير في معرفة القضية على حقيقتها والدفاع عنها ؟..أليس

ذلك . بالمقابل .دافعاً جديراً بالاحترام ؟ وإذن فما هي معايير الكفاءة والاحسان في مثل هذا العمل ؟! هل نحتاج الى أساطين التاريخ وقد قالوا ما عندهم في كتبهم ومؤلفاتهم ؟! أم نحتاج الى اهل السياسة الذين راحوا كما يقول المثل «كل يغني على ليلاه « وقد استبدت بهم أوهام العظمة فأصبحوا يرون في أوهامهم الحقائق التي لايرقى اليها الشك وفي أعمالهم إنجازات ينبغي أن ينحني لها التاريخ وفي أخطائهم إبداعات تجسد الإلهام والعبقرية ..؟!! بل إن ما هو أنكى أنهم اعتبروا مصالحهم الخاصة وما يرتبط بها فوق كل اعتبار ومبدأ لانستثني من ذلك إلا قليلين ، أم نحتاج الى علماء الاجتماع ليدلونا على معرفة الطبائع وطرق التعامل معها والتكوينات وما فيها من حسنات وعيوب .. وما إلى ذلك ؟ أم يدلنا الاقتصاديون على الحل الامثل الذي يجمع المزايا ويلفظ العيوب؟ أم نأخذ كل هذه الاعتبارات والاختصاصات مجتمعة أو مترادفة لنحصل على أفضل النتائج ..

لقد أثبتت تجربة الإحتلال الأمريكي للعراق بأسبابه ونتائجه وبمقدماته وعواقبه أن البناء الشاهق الذي انضوينا تحته كل هذه السنين ينطوي على كثير من الأخطاء والعيوب اكتشفها قليلون .وسكت عنها أكثرهم .وغفل عنها الأكثرون .

إن « شعب العراق « صاحب التاريخ العريق وباني الحضارة .. هذ الشعب الذي ورث الإرث العظيم ..يجب أن يكون قادراً على العمل الموحِّد والموحَّد وأن يكون جديراً بالمسؤولية قبل أن يطلب الإعتراف بأمجاده وتراثه وحضارته .. فليس فينا اليوم واحد ممن بنوا تلك الأمجاد وسطروا البطولات وقدموا الانجازات التي أضاءت ظلمات الجهل في العالم عندما كانت شموع الشعوب مطفأة أو ذابلة .

والطريق طويل والمسافة بعيدة مازلنا خلالهما نبحث عمن يضع بأيدينا مفاتيح تلك المدن السحرية التي نظن أنفسنا ملوكا عليها يخضع لهم العالم برمته . لقد اصبحت تلك المدن جزءا من عالم الوهم والخيال فلا بد والحالة هذه أن نضع في حساباتنا أنه لابد

لنا من بناء مدن جديدة تستحق أن ينحني لها العالم إجلالا مثلما انحنى من قبل أمام تاريخنا القديم ، ولابد لنا من علوّ الهمة وقوة العزيمة وسمو الإرادة وسعة الأفق وتنوّر العقول لكي ننجح في وضع كل حجر من ذلك البناء العظيم وإلا فليس أمامنا إلا الهلاك ... فلنسأل أنفسنا أولاً .. هل نحن عاجزون .. هل وصلنا الى مرحلة اليأس واستشرى فينا الداء .. أم هل نحن قادرون نستطيع أن نقهر اليأس ونسحق الداء وننهض كالعنقاء المغربة التي تخرج من رمادها أقوى وأعظم مما كانت عليه قبل أن توقد فيها النيران .. لنسألْ طلابنا الذين أصبحوا .للأسف .يلجأون الى كل وسيلة غير مشروعة من أجل الحصول على نجاح غير مستحق وغير نافع لأنه بلا أساس ولنسأل عمالنا عن حقيقة مشاعرهم تجاه كل معمل دُمِّر ومصنع خُرِّب وماكنة سرقت وآلة اصبحت القمامة مثواها الأخير. لنسأل كل فلاح تكاسل عن زراعة أرضه وكل جندي أهمل أو أساء في أداء واجبه .. أما الساسة ومن يفترض أنهم من القادة فاتركوهم جانبا فإنهم فريقان .. فإما فاسد مخرب عقد العزم على أن يسبب الهزيمة لكي يحظى بحصة من الغنيمة ، وإما صالح من حيث النوايا لكنه إما غير قادر على التغيير لأنه لا يرى مواطن القوة والضعف فهو غير مؤهل للقيادة وإما مكبل بالأسباب أو بانعدام الأسباب وسواء لدينا منها ما اختلف , وإلا.. فلو كان فينا قائد واع قوي مسلح بالأسباب لتغير منا الحال واختلف المآل قبل أن نخضع للاحتلال.. و أعود ثانية إلى القول أننا نحن شعب العراق أشبه بتلميذ كان جده أو أبوه عالما عظيما و جده الآخر أو عمه فارسا بطلا فالأحرى به أن يتعلم و أن يجدَّ من أجل أن يصل إلى ما كانوا عليه .. فإذا تماهل و أهمل وتقاعس فلن يكون له من ذكراهم إلا العار و الاحتقار .. و لكني أريد هنا أن أثير أمرا دقيقا.. إننا (شعب العراق) لم نرث من أجدادنا العظماء شيئا كبيرا إلا الاسم و إلا الشعور الذي لا أساس له بالعظمة و الفخر .. فقد تقطع ما بيننا و بينهم إلا ما هو قليل من التراث الأدبي و الوصايا الأخلاقية و التربوية .. و ذلك باستثناء الإسلام الذي وصل إلينا كمن خرج من حرب ضروس مثخنا بالجراح مسربلا بالدماء من فرط ما طعنت فيه الفرق و من كثرة ما تكالب عليه المفرقون

و المتفرقون و الجاهلون و المجهِّلون حتى أصبح و هو الجدير بأن يكون سببا للوحدة و القوة سببا للصراعات و الضعف والنزاع .

لقد وُلِد العراق الحديث في الواقع قبل حوالي قرن واحد وإن بذرت بذرة ولادته قبل ذلك بقليل في عهد مدحت باشا الوالي العثماني الذي جمع ولايات العراق في كيان واحد .. أما ماضيه العريق فهو بعيد المنال .. لأن هؤلاء الناس . الشعب . ليسوا هم أولئك الاولون ، و لا زعماؤه ولا رجالاته و قادته هم نفس أولئك القادة و الزعماء ، و لأن طوائفه أصبحت تتوالد عبر التاريخ و تنقسم و ربما تنقرض و أصبح الحزب منهم أحزابا .. يجهلون ما يعرفه عنهم الأعداء الذين ازدحموا في الساحة يتربصون بهم الفرص كي ينال كل حصته من هذا الشعب .. الذي وحدته الثقافة و المعرفة و صهرت بفضل قوة الإسلام فيها كل العناصر التي وردت إلى هذه البوتقة العظيمة.. وإذا به بعدما وحد الأشتات المختلفة يتفرق و يختلف ليستبدل التجانس بالنزاع و الصراع.. منساقا بدوافع غريبة عنه من الأطماع و الأنانية التي جعلت كل فريق يجرب ضدَّ الآخر أسلحة الإلغاء و الإقصاء و التهميش التي أصبحنا نسمع مصطلحاتها اليوم كأنها أسلحة جديدة مخترعة .. وهي قديمة مجرَّبة فينا و مدمِّرة لنا . وهذا ما يجب أن ينبهنا نحن العراقيين (دون خوف من اتهامات الأخذ بنظرية المؤامرة) إلى أن الأطماع في خيرات بلادنا وجدت منذ قديم الزمان ،فلا بد لنا أن نعرف تاريخ الأطماع وتاريخ الكوارث وتاريخ المؤامرات .

لقد استطاع أعداء هذا الشعب الذي ما زال تلميذاً في مدرسة السياسة والسيادة أن يسلطوا أذرعهم لتتحكم بالعقول التي مازال الكثير منها يرزح تحت حمى التأثر المباشر بادعاءات الآخرين بسبب عوامل الجهل والتخلف وعدم القدرة على التمحيص.. أوالعقول التي يشذ بعضها عن التربية الوطنية الصالحة فاذا سنحت له الفرصة باع مالا يباع من قيم الوطنية والشرف وأصبح من الخائنين..

لكن الأمل ما زال معقوداً على الكثيرين فما زلنا نرى شيوخ القبائل والعشائر ووجهاءها

وأكثر أبنائها يرفضون الانقياد لدعوات التفرقة التي تنخر في عظم البناء الوطني مع أن كثيراً منهم يقع تحت تأثير أهل الأطماع وأبواقهم من العملاء والخائنين ،.. ولا تزال ترى فقيرا معدما يترفع عن مذاق موائد الهوان المعفرة بسموم اللاشرعية ويرى أن الاقتراب منها فيه خدمة لأعداء هذا الشعب .. ولاتزال تجد من يسلك طريقا يبتغي فيه إحقاق الحقوق وهو يعلم أن طريقه محفوف بالمخاطر ، ثم اذا قتل برصاصة غدر أو بشظايا المتفجرات ونحن نعلم يقينا أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ومن دافع عن الحق ..وذلك هو الحق ..وجدت الكثيرين ممن يرفع صوته مستنكرا للجريمة ومن يشير الى هوية المجرمين وإن كانوا وراء الستار متخفين وبالقوى الأجنبية الطامعة والمتحكمة متسلحين..

تلك هي بعض بذور الامل والخيوط التي ينسج منها رداء الصبح المشرق الذي ننتظر.. ولكي تجد هذه البذور ما هو لازم لها من غذاء المعرفة كي يكبر الأمل ولكي تستمد تلك الخيوط ما هو لازم لها من قوة الحقائق ..لابد لأمثالي أن يقلَبوا ويسودوا الصفحات و ينقبوا هنا وهناك من أجل درس نافع (إن شاء الله) في بناء الوطن والله في ذلك وفي سواه هو المستعان ..

وسيكشف لنا تأريخ العراق (كما هو متوقع منه) عن أثر الساسة وسلوكهم القيادي بجوانبه المختلفة (العسكرية والإدارية والاقتصادية)على مستقبل البلاد وحياتها ..هذا الاثر الكبير الذي كان له في بعض الاحيان حجم وشكل وطعم الكارثة بكل ما يعنيه ذلك من أهوال ومرارات ..

أما علم الاجتماع فإنه يكشف لنا عن العديد من جوانب الضعف في بنية المجتمع العراقي.. وقد لا يتعلق الأمر بطبيعة التركيب ..الاجتماعية بقدر ما يتعلق بالامكانيات السلبية التي وفرها هذا التركيب أو هذه الطبيعة ، ولكي لانقع في هفوة القفز فوق الحقائق وتجاهلها فلا بد لنا من الاعتراف بأكثر من أمر ..فأولاً لا ينكر أحد أن المجتمع العراقي

قد أُدخلت فيه وبإرادات مختلفة القوة والتأثير والاهداف (استعمارية بريطانية وشخصية ملكية وفئوية قومية) مناطق ضمت أقليات عرقية ربما كان القصد منها تهيئة إحداث التعارض في الإرادات والتوجهات (القومية) ومنع الانسجام بين المكونات المتناقضة مما يؤدي الى اختلاف المواقف (الوطنية) وبالتالي يولد نزاعات وصراعات (كما حصل لاحقاً) تؤثر على طبيعة وقوة وتوجه السلطة السياسية .. ولايخفى على القارئ اللماح أنني هنا أتحدث عن المناطق الشمالية من القطر والتي ضمت أعداداً كبيرة من اخوتنا الكرد وزيدَ عليهم بعض الاقليات الدينية التي تم تهجيرها من المناطق التركية القريبة الى العراق دون أن تنظر سلطة ذلك الوقت عراقية كانت أو بريطانية الى تأثير ذلك على البنية السكانية للبلاد. ولا أظن عراقيا واحدا ممن يتذكرون فترة السبعينات على أقرب تقدير (وقبلها الستينات وماقبلها ومنذ فترة العهد الملكي) يستطيع أن يدعي أنه لم يتأثر من قريب أو بعيد بأحداث التمرد أو العصيان أوالثورة أو الاقتتال في شمال العراق الذي لم يكن يهدأ قليلا من الزمن حتى يتجدد لسنوات طويلة وربما لعشرات السنين ، فكيف بمن فقد أو فقدت والداً أو ولداً أوأخاً أو حبيباً أو زوجاً ..تلك مشكلة من مشاكل العراق في شماله نجمت عن اختلاف التركيب السكاني من حيث العرق ، و يعلم الدارسون أن بريطانيا تبنت فيما بعد ولو ادعاءً موضوع مناصرة الاكراد ودعمهم في مقاتلة باقي اخوانهم من العراقيين المنضوين تحت حكم الحكومة المركزية وبذلك تكون قد أطعمت كلا الفريقين من سمومها عالية الجودة ودقيقة التخطيط ..

ولو التفتنا الى بقية التركيبة السكانية في شمال العراق لوجدنا التركمان يعيشون في مناطق مختلفة اضافة الى العنصر العربي الحضري في المدن (في مدينة الموصل على وجه الخصوص) أو البدوي فيما بعد عن المدن من البوادي ، وعشائر ريفية تعيش على الزراعة في ما بين المدينة والصحراء من الاراضي حيث تمتاز المنطقة بوفرة الماء جاريا في الانهار أو ممطرا من السماء وسكان الشمال عموما مسلمون على المذاهب السنية التي تشيع في المجتمع العثماني القديم والتركي فيما بعد وينطبق ذلك على المناطق التي

تلي متجهين جنوبا حيث يطغى العنصر العربي ..فاذا بلغنا أواسط العراق وجدنا اختلافا جديدا من حيث المعتقد يتمثل في المذهب الشيعي أو المذاهب أو المناهج الشيعية يتبلور ويزداد كلما اقتربنا من حدود إيران ، ويمكن رد عوامل وجود هذه الظاهرة الى عاملين رئيسين احدهما في أقصى الشرق ممثلا بتأثير ايران من حيث وجودها المادي والمعنوي كقوة تبنت المذهب أو الإتجاه الشيعي منذ ظهور الدولة الصفوية قبل حوالي خمسمئة سنة أو أكثر ، حيث يظهر تأثيرها على العنصر الكردي بوجود الكرد الفيليين في المناطق الجبلية شرقي العراق .

ثم اذا عدنا إلى السهل عدنا الى التركيبة العربية التي يتجلى التزامها الذي أسلفنا الحديث عنه بالمذاهب السنية في محافظة ديالى مع استمرار ظهور التشيع بتأثير عامل آخر هو وجود المراقد المقدسة التي تضم رفات الأئمة العلويين الأطهار ورجالاتهم بدءا من مدينة سامراء حيث مرقدا الإمامين علي الهادي والحسن العسكري وغيبة الإمام محمد المهدي ويتزايد ظهورها مع الانحدار باتجاه مجرى نهر دجلة مرورا بمرقد السيد محمد ثم نزولا الى مدينة الكاظمية التي كانت مقبرة القرشيين في بغداد ولذلك فهي تضم مرقدي الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد ولذلك يتكاثر في هذه المدينة وما حولها الافراد والمجموعات الشيعية التي يعود تأريخ استقرار بعضها الى القرن التاسع عشر وما قبله ونجد هنا بعض الاجانب الذين استقر بهم المقام اما لاسباب دينية أو معاشية دون أن يواجه أحد منغصا بسبب التناحر أو التنافر أو مجرد التعارض حيث تحظى المراقد المقدسة بالتقدير الوافر من قبل كل فئات وطوائف الشعب العراقي سوى أنها بالنسبة للشيعة أو بعضهم على الأقل تعتبر مواضع تعبد تجب زيارتها في أوقات محددة ، وتجد طائفة كبيرة من أتباع التشيع خصوصا منهم من بلغوا مراحل عالية من التعليم ومن اختلطوا فترة طويلة باخوانهم من اتباع السنة يعيشون معهم بتجانس ومودة لايشوبها شائب تطرف أو غلو أو احتراب ،ما لم تلعب أصابع الشر بدسائسها ودعاياتها ، ويستمر الاختلاط في مناطق العراق الوسطى اذا انحدرنا من بغداد الى مناطق الفرات الى مناطق

Obeikandi.com

الحلة وما جاورها واذا انحدرنا مع دجلة باتجاه محافظة واسط مع ازدياد لاتباع التشيع ويلاحظ ازدياد عامل التأثير الايراني باتجاهنا شرقا فتجد أن مناطق الفرات الاوسط لاتعرف للتطرف أثرا اذا قورنت بمناطق شرق العراق المتداخلة مع المناطق الايرانية (حيث المجتمع ينسجم بتوجهه المذهبي مع المجتمع الايراني الذي هو بدوره خليط من مركبات عربية وفارسية تتدين وفق المذهب الشيعي غالباً مع تطرف ملحوظ ضد المذاهب السنية واحيانا ضد كل ما له طابع عربي صاف ،يختلط هذا التطرف بأطماع استمرت منذ نشأة الدولة الصفوية) مع أن التشيع نشأ عربيا في مادته وفي غرضه حتى سيطرت جهات ايرانية على بعض مفاصل الحركة الشيعية وسخرتها لاغراضها السياسية والاستراتيجية .

ولو اقتصر الامر على اختلافات المذاهب والمعتقدات الدينية لكان الناس في العراق يعيشون في منتهى الانسجام والوئام بين الطوائف المختلفة بل لكان تأثيره إيجابيا لصالح العراق على الاقل لان مساحات شاسعة من ارض ايران تعود الى إمارةعربية في الاحواز ظلت قائمة في الوجدان حتى بعد قيام العراق ، بل يبدو أن السياسة الايرانية استطاعت أن تقلب المعادلة لصالح ايران باستغلال واشاعة نزعة التعصب الشيعي وحتى السُني في سنوات النزاع الطائفي الذي نشب في زمن الاحتلال الأميركي لكي تحصل بالنتيجة على مكاسب متواصلة لم تتوقف عند اراضي الاحواز ومدن المحمرة وعبادان التي كان يقول عنها المثل العربي « ما ورا عبادان قرية « ، بل ومياه شط العرب وهي اليوم تتطلع الى فرض سلطة معنوية من خلال مطالبتها بالاعتراف الدولي بدورها الاقليمي على لسان العديد من المسؤولين الثانويين بدلا من أن تدعو باخلاص الى التكاتف والتضامن الإسلامي على اساس الجوار الاخوي وتكافؤ وتبادل المصالح المشروعة بعيداً عن الأطماع وبدلاً من محاولات التوسع على حساب جيرانها المسلمين ولو كانوا من الشيعة ويتخوف الكثيرون من العرب في المناطق القريبة من أن تتمكن إيران يوما تحت ظل ظروف معينة من ابتلاع المزيد من أرض العراق وسواءً كان هذا الاحتمال الخطير

واردا أو مستبعداً فان كل مواطن في العراق وكل طائفة ومجموعة من الناس تستطيع أن تتخذ من الإجراءات ما يحصن كل شبر من أرض العراق وذلك بتمكين كل مواطن من نيل حقوقه في ثروة وطنه والتمتع بما تنتجه أرضه وأرض العراق جميعا فكلما ازداد نصيب الانسان من ثروة البلاد كان أشد حرصاً على مصادر تلك الثروة وبالناس الذين تضامنوا معه ليتمتع مثلهم وعلى قدم المساواة والعدالة بما يتمتعون به من الثروة . وبقدر ما يترسخ يقين الانسان بوجود العدالة وتترسخ ثقته في هذه المجموعة التي تقتسم معه بعدالة ومساواة كل الثروات والامتيازات والحقوق تترسخ المشاعر والاواصر الوطنية والقومية والاسلامية ويأخذ كل عراقي منها ما ينسجم مع وضعه الوطني والقومي والديني ليبني عليه أسس انتمائه لهذا الوطن وهذا الشعب وتتفتح بذلك الآفاق أمام أبناء هذه البلاد ولن يكون من الغريب عندئذ أن يتخلى البعض حتى عن امتيازات حصلوا عليها وعن حواجز عملوا على وضعها وترسيخها وعن أوضاع شاركوا في إقامتها ودعوا إليها عندما غلبت عليهم الشكوك والهواجس لتزول بزوالها كل العوامل السلبية قديمها و جديدها.

إن مما لا يقل عن تلك الحواجز والعوامل السلبية في خطورته : التغاضي عنها وانكارها والقفز من فوقها أو التصرف كأنها غير موجودة لان تلك الحواجز وجدت بدوافع وأسباب ، واهمال تلك الدوافع والاسباب يؤدي بنا الى حال يشبه حال من يصاب بجرثومة تنتج عنها أعراض مرضية ولكنه يهمل تلك الاعراض ويتغاضى عن وجود تلك الجرثومة وهو في الحقيقة يعطي للمرض فرصة وللجرثومة ظرفاً مناسبا لتتكاثر وتفعل في جسده ما تشاء من تخريب وإسقام وتدمير ، لذلك علينا الاعتراف بالاختلاف تمهيدا لبدء محاولة تقليل وتذويب الاختلافات عندما تتضح الرؤيا ويتبين لكل انسان ما ينفع وما يضر ..فبذلك نسلك سبيل الواقعية لتجاوز الحواجز ونصل الى حل المشاكل وبناء الثقة لنتمكن من وضع الحجر الاساس لكيان شامخ وفتح الطريق المعبد الى مستقبل مشرق .

ولوعدنا مرة أخرى الى التاريخ لننظر الى أثر الحاكم على مستقبل البلاد بشيء من

التفصيل لعل ذلك يكون لنا عونا على فهم السبب والكيفية فيما آلت اليه أمور الدول التي قامت في العراق لوجدنا من الضروري أن نعرف أو نحدد أركان السلطة السياسية التي يقف الحاكم على رأسها .. وهذه الاركان أربعة منها عامل يمكن اعتباره عاما يتراوح تأثيره بين الحدة أحيانا وبين الخفوت وتأثيره الظاهر يتناسب عكسيا مع ظهور تأثير العوامل أو الاركان الثلاثة الاخرى مجتمعة ، وهو عامل الشرعية التي هي الركن الاول في بناء الدولة أما الاركان الثلاثة الاخرى فهي الجيش أو القوة العسكرية المنظمة والمسلحة التي تطيع أوامر قيادتها وتواجه المخاطر والتحديات بعنف .. فاذا كانت هذه القوة منقادة لقيادة غير ملتزمة بأوامر وسياسة رأس الدولة أصبح كيان تلك الدولة على شفير الهاوية فقد تتوجه القوة العسكرية بنفسها لتتولى الاطاحة بالحاكم بقوة السلاح فهي الأقرب والأكثر استعداداً في كثير من الاحيان للتمرد على الشرعية خصوصاً عندما تكون الشرعية ضعيفة في ذاتها وغير معززة بعوامل تقويها ، لقد بدأت آثار هذه الظاهرة بالاتضاح في تاريخنا منذ عهد المأمون ثم المعتصم اللذين لجأ كل منهما الى الاعتماد على قوة عسكرية من خارج التركيبة الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي وهكذا بدأ قادة الجيوش هنا وهناك بالتمرد بين الحين والآخر لمختلف الاسباب ،ولاتزال قوة هذا العامل وتأثيره على الحكم .. والتحدي الذي يمثله لشرعيته ماثلة للعيان في عصرنا الحديث في كثير من أقطار الارض . ان وجود الجيش ضرورة تحتمها الحاجة الى الحماية ..حماية كيان الدولة وسلطتها باعتبار هذه السلطة رأس وعقل ونظام هذا الكيان الذي لايمكن تنظيم عمل الاجزاء التي يتكون منها الكيان بدونه . ولكن السيطرة على هذه القوة ليست أقل من حيث الضرورة كما يعلمنا التاريخ .

أما الركن الثالث من أركان الحكم فهو الادارة التي تتولى تنظيم شؤون الدولة والمجتمع وقد يتعدى تأثير الادارة الى الجيش احياناً ، والادارة تملك سلطة في توجيه صرف الاموال لتوفير مقومات اقتصاد المجتمع والخدمات التي يحتاجها وما يعرف اليوم بالبنى التحتية التي تمثل الاسس التي يقوم عليها كل من البناء الاقتصادي وأعمال الخدمات.

ويظهر دور الادارة في توجيه واظهار دور القوى البشرية من خلال الخطط والتطبيق عبر المفاصل الادارية ، وتتمثل الادارة اليوم في الدولة بمختلف الوزارات وما يتفرع عنها من دوائر . وقد تتمكن الادارة من حشد القوى البشرية لاهداف سياسية وربما استطاعت من خلال الحشد أن تشل عمل القوات العسكرية كما أنها قد تسيطر على المصادر التي تدر الموارد المالية .. بشكل لايرتضيه الحاكم وتتصرف بعكس ما تقتضيه المصلحة الشرعية عندما يكون لها غرض غير شرعي.

والركن الرابع يتعلق بالسيطرة على المال أو الثروة وحق استلام نسبة من ثروة المجتمع لمصلحة الإدارة .. ونرى في التاريخ أن دعوة الأنبياء الى دين الله هي النوع الوحيد من العمل الجماعي الذي لا يتطلب المال فاذا ما تحولت الدعوة الى تأسيس الدولة بدأت ضرورة العمل على التحكم بالأموال والسيطرة على أساليب صرفها بالظهور وبما أن زمن الانبياء قد مضى فان عملية السيطرة على المال وادارته لابد منها في عملية التنظيم الاداري من ناحية وفي عملية الحماية التي يقوم بها الجيش من ناحية اخرى ، بل انها قد تستخدم لشراء الاعتقاد بالشرعية وهو أخطر أنواع الاستخدام واذا فقد الحاكم السلطة على المال أو الثروة فمعنى ذلك أنه قد فقد أوسيفقد قوة الجيش وقوة الادارة عاجلاً . فقد أصبح الحصول على المال منذ زمن بعيد أقوى دوافع العمل واحياناً الدافع الوحيد . وقد شاع استخدام الاموال لوضع الامور في غير نصابها أو لتغيير المواقف أو تبديل الولاءات وشراء الذمم فأصبح المتحكم بالاموال والمشرف على جمعه وعلى وجوه انفاقه ممسكاً بركن هام من اركان الدولة .

ولقد تميز العصر الحديث باستخدام المال في تطوير وسائل الدعاية التي لها تأثير فعال على الناس في تكوين آرائهم أوتشديد عزائمهم أوتغيير مواقفهم وبذلك تنامى تأثير هذه الوسائل في تشكيل الرأي العام الذي قد يكون له الدور الحاسم في وقوع تغييرات سياسية تكون مؤكدة في الانظمة التي تعتمد سلطتها على رأي الشعب من

خلال صناديق الاقتراع.. كما ظهرت وسائل تأثير اخرى تختص بالعمل في صفوف فئات محددة من الناس على هيأة نقابات أوجمعيات أو أحزاب سياسية ،وسواءً كانت وسائل التأثير هذه ممثلة في وسائل الدعاية المقروءة والمسموعة أوالمرئية والفضائيات والمواقع الاليكترونية على الشبكة العنكبوتية وهي آخر ما ظهر من هذه الوسائل لم يسبق لها وجود في التاريخ البشري أو في التنظيمات الجماهيرية المهنية والنقابية أو وسائل التأثير السياسي الاخرى كالاحزاب و الجمعيات على اختلاف ادعاءاتها وأحجامها وأفكارها فإنها جميعا تعمل في محاولة إضفاء طابع الشرعية على جهة ما وما أن تسقط حجة الشرعية عن نظام أو عن حاكم حتى يصبح تحت تهديد إقامة شرعية مضادة لطامع يستطيع تسويغ أطماعه أو أهدافه الشخصية وتصوير نفسه على أنه الملاك الحارس للقيم الوطنية والاجتماعية والاخلاقية ..الى آخر القائمة و ذلك باللجوء الى هذه الاشكال من وسائل التأثير.

ولكي تلتقي الاضواء المتناثرة التي أضأناها عند جوانب القضية العراقية فلنتذكر أن العباسيين نجحوا في الثورة على الامويين مستندين الى ادعاء موثوق بالشرعية وإدارة جيدة تعمل في الخفاء ممثلة في التنظيم الدعوي السري وموارد مالية جيدة أحسنوا استخدامها ولأن شرعيتهم كانت أقوى وادارتهم أفضل تنظيما وإخلاصاً استطاعوا أن يحشدوا قوة بشرية تمكنت من القضاء على الدولة الاموية وأصبح زعماؤهم يتمتعون ولو في دائرة محددة بالشرعية التي لم تلبث المؤامرات أن بدأت تتناوشها ... ومن الواضح أن المؤامرات انبثقت من تضرر المصالح . وبسبب المؤامرات القائمة أو المحتملة اعتمد الحاكم العباسي فيما بعد على عناصر يظن أن ولاءها ينحصر به وحده فهي ترتبط به برابطة القربى فهم قوم أمه من الفرس مثلاً أو الترك وهكذا أصبح الجيش أجنبياً وإن كانت الدولة تعتبره من مواطنيها لكن الحقيقة التي أثبتتها الوقائع تشير بأن هذا المواطن لم يتمثل روح المواطنة الحقة وهو ينظر الى المجتمع على أنه ليس مجتمعه الحقيقي فلما أصبح هذا العنصر قادراً على الامساك بالسلطة الادارية ولاحظ أن الشرعية الحاكمة

ليست مطلقة لأن مصلحة الحاكم (الخليفة العباسي) وسلوكه لا تتطابق تماما مع ما تأمر به شرعة الاسلام التي هي أساس الشرعية ، عندئذ راح هذا العنصر الاجنبي يحاول كسب المزيد من السلطات فلما تركزت السلطات بيده استهان بالشرعية التي يمثلها الحاكم ولم يلبث أن وضع هذه الشرعية تحت سنابك الخيول وبذلك انتهى استقلال العراق ووقع لقمة سائغة في يد المحتلين من الفرس والترك والمغول وغيرهم فيما بعد ..

كذلك لعب موضوع « الشرعية « دوره في تسهيل مهمة الجيوش التي جاءت لاحتلال العراق في السنوات الاخيرة بعد أن أدت طريقة صدام حسين في الحكم الى تدهور الموارد المالية وشاع بسبب الضائقة التي نجمت عن ذلك : الفساد الذي نخر هيكل الادارة وبشكل أكبر الجيش ، الذي كان عصبه الضبط العسكري يعتمد على وترين الاول معنوي يستمد قوته من شرعية الحكم و من الرفاه الذي ينتظر أن تحققه الدولة لمواطنيها وحاجة هذا الرفاه الى من يدافع عنه ضد الاطماع الاجنبية ، والثاني مستمد من التعسف وسلطة العقاب الشديد الذي يفرضه الجيش على المخالفات مهما صغرت فلما انقطع الوتر الاول وضعف تأثير الوتر الثاني امام التهديد بخطر الموت وبسبب الوضع الذي فرضه القتال لم يعد لمن بقي في ساحة المعركة سوى قوة سلاح غير فعال في مواجهة أفضل ما في العالم من أسلحة .

لقد أفادتنا دراسة التاريخ (للعراق وما حوله) بمعرفة التحديات والتأثيرات الخارجية على الواقع العراقي ورأينا أن الاطماع الايرانية القائمة على الامجاد المطمورة للامبراطوريةالكسروية الفارسية التي فرضت سيطرتها زمنا على ما جاورها والاحقاد الناجمة عن الحسرة على ضياع تلك الامجاد ورغبة استعادتها وما يبنى على ذلك من سلوك توسعي هو أكثر التحديات والتأثيرات الخارجية اتساعا وخطورة على مستقبل العراق لانه يهدد الاستقرار السياسي والبناء الاقتصادي والتفاهم الاجتماعي . يضاف الى ذلك أطماع القوى العالمية في التغلغل الاقتصادي للاستحواذ على الثروات في البلاد..

ويذهب التأثير الايراني أبعد الى التأثير على التوجه الطبيعي للغالبية من سكان العراق العربية للتلاقي والتوحد مع الشعوب العربية الاخرى ذلك الهدف الذي تجتمع ضده الاطراف المعادية للعرب على اختلاف الدوافع والاسباب .

إن علم الاجتماع سيصبح مفيداً لنا في معرفة ودراسة التحديات الداخلية ويعود أحدها على ما ذكرناه في موضوع التأثير الايراني وهو الاختلاف الطائفي الذي يبدو أن ايران لها ميزة الاستفادة منه والحث على توسيعه ،اضافة الى تأثير موضوع آخر هو موضوع الموقف الكردي ليس فقط من حيث معارضة التوجه الوحدوي العربي ولكن أيضا من حيث السعي الى امتيازات متعددة الجوانب والاشكال لها تأثير واضح على واقع ومستقبل العراق ومحاولة معاقبة الشرائح الاجتماعية العراقية المؤيدة لهذا الاتجاه (في سنوات ما بعد الاحتلال) أو تشجيع معاقبتها أو على الاقل التغاضي عن ذلك اذا وقع من قبل السلطة العراقية التي كان للأكراد دور مشهود في العمل على خلق الظروف التي أدت الى وصولها الى سدة الحكم ، والموقف الكردي يعمل كما هو ملموس من سلوك القوى السياسية الكردية المهيمنة في اتجاهين:. الاول وقف التوجه القومي العربي للحكومات العراقية وقطع صلات العنصر العربي العراقي بالمحيط العربي وتشجيع انعزال العراق عن الدول العربية والابتعاد عنها ..والاتجاه الثاني يتمثل في تكريس انعزال وانقطاع المناطق الكردية عن باقي مناطق العراق وتضخيم صلاحيات السلطات الكردية لتقترب من صلاحيات الدولة المستقلة ،والانكأ من ذلك كله أن بعض زعماء الاكراد باتوا يتعلمون من أعداء العراق أن يحاولوا التوسع واقتطاع بعض المنا طق التي يتمكنون من دفع المواطنين الكرد اليها للسكن فيها ومحاولة تغيير طابعها السكاني ، وربما وقع اللوم تأريخياً على السياسات غير المتعقلة التي اتبعتها الحكومات العراقية المتعاقبة ضد الاكراد والتي لم تستطع أن تلبي المطامح المشروعة لهم ، وليكن معلوماً أنني لاأدعو الى غمط حقوق الاخوة الكرد كما لا أوافق على أن يكون ذلك ذريعة لاكتساب حقوق لا أساس لها من الشرعية .وقد لعبت العقوبات التي فرضها المجتمع الدولي على العراق

دوراً في وصول المنطقة الكردية الى وضع يستطيع فيه زعماؤها التصرف بالشكل الذي أشرنا الى طبيعته ولم تكن ايران عبر التاريخ الحديث بعيدا عن مثل هذا التأثير أيضاً .

في الظروف المثالية يمكن للعلوم الاقتصادية والجيولوجية بقدر ما يتعلق بوجود الثروات أن ترسم امامنا أفقاً ايجابياً مشرقاً للقضية العراقية ، لكنها في الظروف الحالية لاتقدم الا أسبابا لمزيد من النزاعات ومزيد من الدعوات التي تؤدي الى الصراع سواء بالميل الى السيطرة على أجزاء غنية أو محاولة الاحتفاظ بهذه الاجزاء أوبالدعوة الى انفصالها بدرجة أو باخرى .

ويبقى المعوّل على ما يمكن أن يعالج الواقع العراقي ، من علوم ومبادئ وسياسات ، عن طريق :

- معالجة الأزمات الناجمة عن التجاوزات الحاصلة (مع الاعتراف بوقوعها) بالعمل على إزالة تلك التجاوزات وآثارها .

- التوعية والتنبيه الى مخاطر فكر الاستحواذ ونزعة التطلع الى ما في يد الآخرين من ملكية مشروعة ونبذ هذه الافكار والتخلص منها .

- التأكيد على مبادئ العدالة والمساواة بين الطوائف وبين الافراد .

- التأكيد على الثقافة الديمقراطية والقبول بحرية الرأي والتمثيل العادل لمكونات الشعب في السلطات المحلية والوطنية .

- الحرص على أن لاتكون الشعائر والممارسات الدينية والاجتماعية عامل قلق أو ضغط أو إزعاج للآخرين أو ذات تأثير عليهم بحيث يمكن اعتبار هذا التأثير سلبيا ولابد أن تكون حرية التعبير عن الرأي والمعتقد منضبطة بالحدود التي لاتتعدى الى التأثير على حرية الآخرين كي يمكن استمرار وضمان هذه الحرية دون انعكاسات سلبية .

القومية والوطنية..محاولة استيضاح

لتحاشي الاختلاط في المفاهيم ولغرض تبيان المقصود بكل من مصطلحي الوطنية والقومية نستطيع استخدام التعريف الذي جاء به الاستاذ ساطع الحصري ومفاده أن الوطنية هي حب الوطن (المكان الذي نشأ وترعرع فيه الانسان) وأن القومية هي حب الامة وهي المجموعة البشرية التي تجمعها روابط مشتركة كاللغة والتاريخ المشترك وغيرها وبذلك فقد يتعدى تعريف كل منهما الى داخل تعريف الآخر فتنشأ بينهما مساحة مشتركة من الدلالة يمكن أن تصل الى الكلية فينشأ عن ذلك تطابق كامل بين المعنيين ، أما الاختلاف بينهما فينشأ عن طبيعة الدولة ،وهي كيان سياسي قد تشمل الامة جميعا فتكون ارضها وطنا لهم وهي حالة التطابق التي ذكرتها أما اذا ضمت الدولة جزءا من الامة وضمت دولة أخرى الجزء الآخرفعندئذ تحدث المفارقة بين الوطنية والقومية وتصبح القومية هي التطلع الى الكيان الذي يمكن أن يجمع أجزاء الامة في دولة واحدة فاذا قام ذلك الكيان واقعا اتحدت الوطنية والقومية في معناهما ، ولكن طبيعة الحكومة القائمة في هذه الدولة أوتلك يمكن أن يقف عائقاً امام قيام هذا الكيان وفي هذه الحال ينشأ تناقض بين الوطني والقومي فالمفترض أن الحكومة تمثل الشعب الذي تحكمه ولكنها قد تخضع لمؤثرات معينة ،فاذا كانت الحكومات التي تقوم في الدول (التي تحكم أجزاء الامة) تمثل الشعب فانها لابد أن تسعى الى التوحد والتخلص من التجزئة ،على اعتبار أن التجزئة هي واقع يكرس سياسة وهيمنة وارادة قوى معادية لتلك الامة ،أما اذا كانت تلك الحكومات لاتمثلالانفسها أو تمثل مصالح بعيدة عن مصلحة الامة فعندئذ تصبح القومية وتطلعاتها في خانة المحرمات .وهذا الحال تقريبا هو حال

الامة العربية والعراق جزء منها يضم غالبية من السكان العرب الذين يتطلعون الى وحدة أمتهم منذ عشرات السنين دون أن يتحقق لهم ذلك مع أن وحدة الامة مكرسة في نفوس العرب في كافة أقطارها ١.

تتمثل العوائق التي تقف في طريق توحيد الامم على أساس قومي بمايلي :

- السيطرة الاستعمارية على الحكومات أو وجود حكومات عميلة تتحكم بمصائر أبناء الامة .

- خشية الحكومات الدكتاتورية من فقدان سلطتها .

- خضوع بعض الاجزاء للاحتلال الأجنبي كحال فلسطين .

- معارضة الاقليات (إن وجدت في هذه الدولة أوتلك) خشية الذوبان في وسط كبير أو خشية فقدان الامتيازات .

- وقوع الدول المتعددة تحت سلطة أحزاب متناقضة ودكتاتورية غير مستعدة للتخلي عن السلطة .

- تأثير قوى سياسية داخلية لها ارتباطات تتناقض مع التوجه القومي كالاحزاب الشيوعية

- اختلاف شكل الحكم (ملكي وجمهوري) مما قد يولد التناقض بين هذا الجزء وذاك في ضوء الأنانية ويمنع الخطوات المبكرة نحو التوحد .

١- ينظر ساطع الحصري ـ آراء في الوطنية والقومية ـ ص٩ وما بعدها .

obeikandi.com